مكية الجزء الثلاثون سورة الفجر آياتها ٣٠

سورة الفجر، وهي سورة مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا
الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم الله جَلَّ جَلَالُهُ بالفجر قيل الصبح، وقيل النهار، وقيل صلاة الفجر، وقيل صلاة الفجر يوم عرفة وأي كان فقد أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالفجر؛ لأنه آية عظيمة، إن كان الصبح فهو آية يفلقها الله ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]، وإن كانت صلاة الفجر فهي صلاة مشهودة تشهدها ملائكة الله، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨] وإن كان النهار ففيه من العجائب الدالة على قدرة الله ما الله به عليم.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل عشر ذي الحجة، وهو أشهر الأقوال، وقيل العشر الأواخر من رمضان، وقيل العشر الأول من محرم، فعشر ذي الحجة فيها يوم عرفة، وهو أفضل أيام العام، وعشر رمضان فيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام رمضان الذي هو فرض وركن من أركان الإسلام، وفي فضل يوم عشر ذي الحجة ما أخرجه البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ**». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**»(١).

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ الشفع: قيل بنوا آدم، والوتر: هو الله، وقيل الشفع: الصلوات المشفوعة، والوتر الصلوات الفردية، وقيل الشفع العدد الزوجي، والوتر الواحد، وقيل غير ذلك، ذكر ابن كثير أكثر من سبعة أقوال عن السلف في هذه المسألة، ولا مانع أن الشفع المراد به صلاة الشفع

(١) أخرجه الترمذي (٧٥٧).

والوتر المراد به كذلك، أو أن الوتر هو الله عَزَّوَجَلَّ، والشفع هو ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ أَيْ: أن الآية عامة فأقسم الله بكل شفع وكل وتر.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ يقسم أيضًا بالليل إذا سرى وغطى الأرض بظلامه، أو إذا ولى، لكن المعنى الأول أليق؛ لأنه أقسم بالفجر الذي هو أول النهار، ثم أقسم بالليل الذي هو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ ﴾ [التكوير:١٧-١٨].

﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: فيما ذكرت ﴿ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ أَيْ: قسم لصاحب اللب السليم والعقل المستقيم، ففيها آيات بينات، ظاهرات قاهرات، وتدل على إفراد الله بالخلق والملك والتدبير وتدل على إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة.

﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ أَيْ: ببصرك وبصيرتك ﴿ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ وهم قوم هود، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ [فصلت:١٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف:٦٩]، وقد أهلكهم الله بالريح كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأحقاف: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥ ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، وكان سبب ذلك ما أخرجه أحمد عَنِ الْحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ، قَالَ: إِنَّ عَادًا أَرْسَلُوا وَافِدَهُمْ قَيْلًا، فَنَزَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ، وَتُغَنِّيهِ الْجَرَادَتَانِ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى جِبَالَ مُهْرَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِ لِأَسِيرٍ أُفَادِيهِ، وَلَا لِمَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتَ سَاقِيَهُ، وَاسْقِ مُعَاوِيَةَ بْنَ بَكْرٍ شَهْرًا - يَشْكُرْ لَهُ الْخَمْرَ الَّتِي شَرِبَهَا عِنْدَهُ - قَالَ: فَمَرَّتْ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنُودِيَ أَنْ خُذْهَا رَمَادًا، رِمْدِدًا لَا تَذَرْ مِنْ عَادٍ أَحَدًا قَالَ أَبُو وَائِلٍ: «فَبَلَغَنِي أَنَّ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ كَقَدْرِ مَا يَجْرِي فِي الْخَاتَمِ»(١).

﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ أَيْ: عاد هم إرم، قبيلة من قبائل العرب، ذات العماد؛ لأنهم كانوا يرفعون سقف بيوتهم، وأما من ذهب إلى أن إرم ذات العماد مدينة تتحرك ولا يوجد مثلها في الأرض، وهذا يقول: رأيتها في حضرموت والثاني يقول: رأيتها في الشام، وأنها ترى في السنة مرة، هذا

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٥٣).

كلام ليس عليه دليل.

﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ لأن الله أعطاهم قوة، فكانوا يرفعون بيوتهم ويشيدونها، ويشيدون مداخلها ومخارجها، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٣٤].

﴿ وَثَمُودَ ﴾ أَيْ: ألم تر ما فعل الله جَلَّجَلَالُهُ بثمود، وهم قوم صالح هداهم بالدلائل البينات فأبوا إلا الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت:١٧]، وقد أهلكهم الله جَلَّجَلَالُهُ بسبب عقر الناقة على ما يأتي في سورة الشمس، ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ أَيْ: قطعوا الصخور؛ لقوتهم ولصلابة طباعهم. ﴿ بِٱلْوَادِ ﴾ وادي القرى، إذ كانوا يسكنون فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٤٩].

﴿ وَفِرْعَوْنَ ﴾ أَيْ: ألم تر ما فعل الله بفرعون الجبار الذي ادعى الربوبية كبرًا وعلوًا ﴿ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ صاحب الأهرامات العظام، وقيل الأوتاد: الجنود الذين ثَبَّتوا ملكه، كما تثبت الأرض بوجود الأوتاد من الجبال الرواسي عليها وهذا القول الذي عليه أهل التفسير، وقيل لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أَيْ: كل من تقدم: عاد وثمود وفرعون ومن إليهم، كلهم وقع منهم الطغيان والتجاوز لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، فقتلوا وظلموا وبطشوا، وأعظم الطغيان الذي وقعوا فيه، الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ الفساد الديني والخلقي، فإن أعظم الفساد أن يشرك بالله عَزَّوَجَلَّ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ثم يليه الفساد الخلقي، حيث يرتكب الناس الزنا واللواط ويشربون الخمور وغير ذلك من المحرمات، قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم:٤١]، وقال: ﴿ وَمَآ

﴿أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أَيْ: أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل عليهم رجزًا من السماء وأحل عليهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين فأهلكهم بعذاب صبه عليهم صبا، فأهلك عادا بريح، وثمود بصاعقة وصيحة، وفرعون في اليم، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ أَيْ: يرصد خلقه فيما يعملون فيسمع، ويبصر، ويعلم، ويرصد أعملهم، وإنما يمهلهم كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق:١٥-١٧].

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

ثم قال جَلَّجَلَالُهُ: مخبرًا بحال الإنسان في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، ينظر إلى ما يأتيه من خير أو شر بمنظور دنيوي لا منظور شرعي ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أَيْ: جنس الإنسان ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالولد والمال والبيت والسكن والأتباع ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ في مأكله ومشربه وملبسه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ يزعم أن هذا كرامه من الله له، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [فصلت:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] ومع أن المال لا يدل على كرامة؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وإنما المكرمة في الدين لأن الله يعطي الدين من يحب، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات:١٣]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ**»(١).

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ أَيْ: إذا ابتلى الإنسان بقلة المال، والفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أَيْ: ضيق عليه العطاء فإن الرزق هو العطاء ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ يزعم أن الله أهانه بذلك، وهذه نظرة الكافر لا نظرة المسلم، وأما المسلم فيعلم أن في المال بلغة، كما قال رسول الله ﷺ: «**نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»(١) ومع ذلك ليس هو بدليل كرامة، فينبغي للعبد أن يحمد الله على الهداية، وأن يسعى في تحصيلها، وأما الدنيا فليست بمقياس، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»(٢).

وانظروا إلى حال النبي ﷺ دخل عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أثر الحصير في جنبه، وفارس والروم ينامون على الديباج والحرير، ويلبسون الإستبرق، ويشربون في آنية الذهب والفضة، فالعبرة بدين الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: ﴿كَلَّا﴾ حقًا ليس الأمر كما زعم فإن الدنيا ليست بمقياس كرامة: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ يقول لا تقع منكم كرامة اليتيم الذي فقد أباه ويحتاج إلى من يحوطه تربية وكفالة، وكفالته من أعظم الأجور، فعَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا(٣)، وظلمه يعتبر من أشد الظلم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠]، إكرام اليتيم طاعة، وإهانة اليتيم معصية قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ [الضحى:٩].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أَيْ: ولا تأمرون غيركم بإطعام المسكين المحتاج الفقير، فإذا كان الذي لا يأمر بإطعامهم مذموم فالذي لا يطعمهم أشد في الذم؛ فيجب على الإنسان أن يعطي ما أوجب الله عليه في ماله، من زكاة وصدقة ونحو ذلك، ويحث غيره على ذلك، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣﴾ [الماعون:١-٣] فأخبر أن هذا فعل المكذبين بالدين.

وقال أيضًا: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥﴾ [ق:٢٤-٢٥]، فالإنسان يذم بمنعه الخير بعدم أمره بالخير.

والمسكين، قيل: هو الفقير، وقيل: بينه وبين الفقير عموم وخصوص، وهو أن الفقير الذي

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٠٢)، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠).
(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠٤).

يجد مالًا لا يغنيه، والمسكين الذي لا يجد شيئًا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ الأُكْلَةَ وَالأُكْلَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى، وَيَسْتَحْيِي أَوْ لاَ يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا»(١).

قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أَيْ: المال المكتسب بالإرث وغيره ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أكلا شديدًا، سواء كان من حلال أو حرام، فينفقونه في كثير من أوجه الشر والفساد ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ﴾ أَيْ: جنس المال من الذهب والفضة، والإبل، والبقر، والرقيق، والعقار وغير ذلك ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ حُبًّا عظيمًا في نفوسكم حتى تقدمونه على طاعة الله ومرضاته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن:١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩]، وربما بسببه أحللتم الحرام وحرمتم الحلال، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنَّ لَهُ وَادِيًا آخَرَ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَاللهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ»(٢).

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

ثم يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أَيْ: حقًا أن هذا الذي تقدم سيترك، وسترحلون منه إلى غيره، وذلك ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ حين دُكَّتِ الأرض وذهبت جبالها، كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ:٢٠] وصارت بيضاء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٧-١٠٨].

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ مبالغة في دكها وتغيير حالها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٨).

﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨] وقام الخلائق من قبورهم.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، وفيه إثبات صفة المجيء لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦]، ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أَيْ: وجاء معه الأملاك ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ صفوفا كثيرة، يحيطون بالمخلوقات المحشورة.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ﴾ تجر وتقرب من أهلها، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء:٩٠-٩١].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أَيْ: في هذا اليوم يتذكر الإنسان كل الأعمال التي عملها، من تفريطه في الطاعة، وارتكابه للمعصية، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [النازعات:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لا تنفعه الذكرى عندئذ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]. فيتذكر كل عمل لكن لا يفيده ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يستعتب العمل.

﴿يَقُولُ﴾ أَيْ: جنس الإنسان الظالم لنفسه: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أَيْ: من الأعمال الصالحة التوحيد والصلاة والصيام، وجميع أنواع الطاعات والقربات، والمراد بالحياة هنا: الحياة الأبدية، يا ليتني قدمت لها ما يكون سببًا في حصولها على الوجه الأكمل، وأما الدنيا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

وعن عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «**فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**»(١)، ولما فرقت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الشاة التي ذُبحت، قالت: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بَقِيَ إِلَّا كَتِفُهَا؟ قَالَ: «**كُلُّهَا قَدْ بَقِيَ إِلَّا**

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

كَتِفَهَا»(١)، لأن الشيء المقدم عند الله عَزَّوَجَلَّ ينال الإنسان بركته في أُخراه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ لا يعذب عذاب الله أحد، عذاب شديد، وخزي عظيم أكيد، كما قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة:٨-٩].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أَيْ: يوثق الكافر؛ فلا يستطيع الفرار ولا تغيير الحال الذي هو عليه، ويوثقهم بالسلاسل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ [الحاقة:٣٠-٣٧].

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ هذا خطاب للنفس المؤمنة عند مفارقة الروح الجسد كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ**»(٢)، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾ [الواقعة:٨٨-٩٤]، واطمأنت هذه النفس بالتوحيد وبجميع أنواع الطاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أَيْ: بالموت فما بعده في المحشر ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ على نفسها، وراضية بما نالت من ربها، وفي حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»(٣).

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أَيْ: في عباده الأخيار المصطفين من الله عَزَّوَجَلَّ، الذي التزموا الطاعات، وهذه هي العبودية الخاصة المقتضية للخضوع والمحبة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٤٠)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٦٩)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، والنسائي (١١٣٧٨).

(٣) متفق عليه، البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ جنة عَدْن، كما قال تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ٥٥﴾ [القمر:٥٥].

وهذا وعد عظيم من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين.

وأما ما يفعله بعض الناس من كتابة هذه الآية على نعش الميت فإن هذا من البدع، وكذلك قراءتها عند التعازي، ثم إن في فعل ذلك الحكم للإنسان بالجنة، وعقيدة أهل السنة عدم الجزم بجنة إلا لمن حكم له رسول الله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين.